قاتلتي التي قتلتها..

أحمد شافعي

هذا أنا..

أنا... من أنا؟! كل كلمات الدنيا تُجافيني إن أردت جمع عمري تحت أي عنوان، أو وصمه بأي صفات! كل ما يمكنني البوح به هو أنِّي زمرة من الأحلام تكبر وتتعاضد، يرافقها قليل من عزمٍ ينكص ويتخاذل لا يقوى على مجاراة آمالي الراكضة نحو غدٍ لم تبزغ تباشيره بعد!

كل ما يمكنني تبيانه عن نفسي وبعد جهد جهيد؛ أنِّي روح تهوى القراءة والكتب، أجدني دومًا فوق الصفحات، بين السطور، أشتمُّ رحيق الأحبار! وفي بعض لحظاتٍ قصار أنْظم القليل من الحروف، يظنَّها بعض الرُّحماء شيئًا ذي قدر! جُلَّ لحظاتي الهانئة عندما يحتويني كتاب، ويجاورني شايًا في كوبي في صدر شرفتي الزاهرة، أرمق الأفق بعينين يتراقص فيهما الأمل!

أحمد شافعي

قاتلتي التي قتلتها

يُغلق باب سيارته بهدوء، يودَّع الميكانيكي الصغير الذي نفخ في أوصال سيارته دبيب الحياة بعد أن تيبَّست إطاراتها على قارعة الطريق، يُحادث نفسه هامسًا: "آه منهم صغار اليوم، يأتون بأمور كانت تُعجز دواهي شيوخنا فيما مضى!"

قدمه اليمنى تضغط بقوة، يستجيب المحرك ويُعلِن عن عزمه الشديد. يُخاطب مركبته بتودد: "هيا يارفيقة الدرب، أعلني عن أصل معدنكِ؛ فهناك خلقٌ كثيرٌ وتلال أوراقٍ يحرقها الشوق لتوقيعي، هيا"

تندفع به كطلقة مدفع تعرف وجهتها، عجلاتها تلتهم الأرض، ينظر يمنةً ويسرةً، تكتظ ملامحه بعلامات التعجب فجأة، يحادث نفسه بدهشة: "مالذي جاء بي من هنا؟! ليس هذا الطريق الذي أقصده! لكن.... يبدو أن عيني تألف تلك الشواهد والعلامات! كيف هذا؟!".. يصفع جبهته بحنق: "نعم هو ذاك الـ....! الطريق الذي شهد الفاجعة!"

يا آآآه، ماتزال تفاصيل تلك اللحظة المشئومة تُمسِك بتلابيب ذاكرته، مع أنه جاهد ليالٍ وأيَّامًا للإفلات منها!

يرمي بنظرة للمقعد الخالي عن يمينه، تنتابه رجفة عظيمة توجَّعت منها مفاصله: "هنا كان آخر عهدها بالدنيا".. تتفلت من عينيه دمعات: "بل، بل كان آخر عهده هو بالحياة!"

يسترجع تلك اللحظات، كأنه يحياها من جديد: بعد أن دفن مروؤته واستلَّ نقوده كسلاح ليراود ساكنة قلبه القديمة عن طهرها؛ يوم أن جاءته تشكو الفقر والمذلَّة بعدما أُغلِقت في وجهها كل الدروب وفرَّ زوجها بعيدًا من ملاحقة ديون التهمت كلَّ حصاده في الدنيا! لكنها بمجرَّد أن رأت في عينه صدق النيَّة على الفُجْر وانتهاك الفضيلة؛ فضَّلت إحتضان قسوة الأسفلت عن السكون بين ذراعيه، وأطاحت بجسدها من السيارة وبروحها من الدنيا قبل أن تقع في الإثم العظيم ويحلَّ الضلال!!

يرمي ببصره بضعة مئات من الأمتار للأمام: "هناك تحت تلك الشجرة التي تترآى من بعيد؛ نزفت آخر أنفاسها وهي تجلدني بصواعق النظرات!

يضرب عجلة القيادة بغضب عارم: "آه منها ابنة الحرام تلك، دومًا أجدها في مواجهتي!".. تنزلق قبضته.. تدفع بالسيارة للإنحراف، يداه تعجز عن إعادتها لوضع الاستقامة، يتملكه الفزع، يستوطنه الرعب. لكنَّ استدعاءه لخبرات عديدة في مجال

القيادة وبعد مجاهدة ومكابدة نجح في إعادتها للطريق المستقيم، نبضاته ما تزال عنيفة، روحه ما تزال قلقة، ينبغي عليه التوقف قليلًا لالتقاط بعضًا من أنفاسه المُتسارعة.

يضغط على المكابح، ولا مكابح!! يدهسها بعنف، يركلها، يصرخ: "كيف هذا؟! مالذي حدث؟!".. يتذكَّر صبي الميكانيكي: "ماذا فعلت أيها الولد؟!"

آآآه، قد اقترب الأجل، سيُسدَل الستار عمَّا قريب، ستُصبح من السابقين، لكن بلا زاد يقيك الذل في عرصات القيامة!!

لا يدرِ من أين سكنته كل تلك السَكينَة، كأنها انسكبت من السماء في قلبه!!

آآآه، إنها يد القدر التي تعمل في الخفاء وترسم القصاص، يد القدر التي دفعت يد الصبي للخطأ!

فجأة، يرفع يده عن المقوِّد، يترك السيارة لتتمة مهمتها، عمَّا قريب سيحلَّ الاصطدام، ستندكَّ عظامه ويتفتت لحمه، وتتداخل أضلاعه مع حواف الحديد!

مع أن نفسه حدَّثته مرارًا بالإقدام على اقتراف إثم الإنتحار، ولطالما أراد وضع كلمة النهاية في كتاب حياتة عديمة الشغف،

ولكم قضى ليال مقيتة يكابد تلك الوساوس؛ لكن أن يحدث الأمر حقًا رأي العين ويكون حقيقة لا منجا منها؛ إنِّ هذا لأمر عصيب!!

ياآآآه، كثيرًا ما كانت تراوده فكرة الخلود هنيهات للراحة، لتذوق طعم الحياة، لكنَّ عقله المكبَّل بأحلام الصعود كان يدفعه دومًا للمواصلة، كان يوهمه بأن في نهاية الممر سيكون هناك مُتسع لفعل كل شيء، لكن الوقت الآن وقت العمل والسعي، لابد من اعتلاء الفرص حتى لا تقع ذات يومٍ تحت نصل الندم! لكن هاهو يقترب من حافة الشيخوخة وحاله فِي الدنيا كأول يوم دخلها، لا رفيق ولا أنيس إلا الكدَّ والتعب!!

ها هو خط النهاية يلوح من بعيد، خط ظننته فيما مضي بعيد بعيد!!

يسترجع فوائت أيامه كشريط سينمائي مُتسارع الأحداث، يضغط زر التثبيت عند لحظة فارقة؛ تلك اللحظة التي وضعت قطار مستقبله على قضبانٍ مغايرةٍ! يوم أن تنكَّرت ابنة العز لغرامه ورمته بضعف المقدرة، وأهالت على نيران عشقه سيول من التجاهل دون أسف! وأعلنت الفراق بكل جفاء، واختارت حضن رجل آخر وارف المال!"

وحتى بعد أن عادت له مُنكسرة مُستنجدة تجرُّ أذيال القنوط واليأس؛ لم تتركه ليتذوَّق طعم التشفِّي وينعم لثوانٍ بالنصر!!

"آآآه، قاتلها الله تلك اللعينة، يبدو أنها منذ البداية كانت قدري الذي لا فكاك منه! فهي من دفعت بحياتي لميدان التحدي، لصراع إثبات الوجود وبنيان الذات، لخضم معركة مع الزمن تركت على أرضها قناعة الرضا ونقاء السريرة، وخرجت منها مزهوًّا ببريق المكانة وصلادة القلب!"

تدمع عيناه بدمع ثقيل، إثر امتلاء رأسه بصورٍ عديدة لبناتٍ في عمر الأزدهار، استمرأ إنتهاك بكارتهن بعقود زائفة مُستغلًّا عوز أهلهن وضيق ذات أيديهم، ليروي ظمأ نفسه المقيتة المُفعمة بالثأر منها؛ عن طريق الانتقام من كل بِكرٍ ذات قرطٍ وشعر! كان يقتحمهن بكل شراسة متعمدًا ممارسة أبشع أنواع الوضاعة! لا يرقَّ لتوسُّلاتهن أو يستمع لأنَّاتهن المخضَّلة بالدماء! ثم بحفنة أموال يُسكت ألسنة ذويهن ويقطع بلا أسفٍ أوراق الرَّباط!

ينتابه عزم مفاجئ، تكتسي ملامحه بالحدةٍ والصرامة "إن كان القدر لا محالة واقعٌ، فلا ضير من التعجيل به! سأجيب روحكِ اللعناء إلى مطلبها يا قاتلتي التي قتلتها، وسأحتضن الموضع الذي احتضنكِ في آخر اللحظات"

يوجَّه السيارة نحو ذات الشجرة التي تُلاصق الموقع المعهود، قدمه تحرق مزيدًا من الوقود، عيناه تمور بالدموع، قلبه

يكـاد يتمـزَّق مـن ضـربات الخـوف الرهيـب، المـوت يقـترب، يقترب، يقترب.....

لكنَّه عزم على الموت بنفس طريقتها! علَّ ذلـك يُكفِّـر بعـضًا مـن ذنوبـه تجاهها، يفـتح بـاب السيارة يتحيَّن اللحظـة الحاسـمة لمعانقـة الأسـفلت "هـا.... هنـا يكفـي"، يُلقـي بنفـسه كأنـه علـى مـشارف البحـر! تحطَّمـت عظامـه كالزجـاج الهـش، واهـترأت أعضائه وتفجَّرت أنحائه بالدم بعد عدة لفات من العذاب الرهيب على سواد الطريق.

ومـاهي سـوى ثـوانٍ حتـى حـلَّ الاصـطدام المـروِّع، صـوته كرعد قاصف قصم اتساع السماء! الشجرة كأنها زُرعت داخل السيارة التي تكوَّرت واعوجَّ كل مافيها!.

مـا تـزال بـه بعـض روحٍ ونبـضات، اسـتغلَّها للزحـف نحـو الموقع المُراد، يعبر الطريق كثعبان فقد نصفه تتبعه آثار الدم.

في ذات المكان، تحت ذات الشجرة، أسـلم جسده المتهـدِّل بـآلام مـا لهـا حـدود لـلأرض، يرنـو نحـو السماء بعينين داميتين، أنفاسه تذوب ببطء، يسقط في غياهب الصمت!

و أهو ده اللي صار!